مظلّة

أحبها ملوّنة، أحبها منقّطة، ورأيتها يوماً مشجرة! كانت نقوشها أزهاراً جميلة حمراء ووردية، وكانت مصنوعةً من قماشٍ سميك كأقمشة الخيام الفاخرة، وليس من ذلك النوع البلاستيكي الملمس، ولكنها كانت معروضة بسعرٍ باهضٍ لا يتماشى والاستخدام الذي سأشتريها من أجله، إذ أنه كان مرتبطاً بما تبقّى من وجودي في بريطانيا وكان لا يزيد على السبعة أشهر، لذا فقد تجاهلتها واشتريت تلك المظلة اللعينة..

المظلة شيءٌ رقيق.. شاعريّ.. وطبيعة ما اخترعت من أجله تضفي عليها المزيد من المعاني الجميلة التي كانت تزيدني احتراماً لها.. لطالما حلمت باستخدم مظلة منقطة في يومٍ مطير وأنا طفلة، ولكن الخيال أجمل من الواقع في كثيرٍ من الأحيان.. هذا ما آمنت به عندما بدأت استخدم المظلة في أدنبرة المطيرة دائماً.. كانت أعوادها الحديدية تنثني إلى الخلف بفعل الرياح وتخذلك بضعفها في أحلك اللحظات، وكانت تضرب رؤوس الآخرين بأطرافها الحادة أحياناً وقت الزحام، وتُنسى في الباصات أو المحطات، وكانت تتطاير هنا وهناك، وتترك بقعاً من الماء أينما وضعتها..

ثم إنها كانت تقدم شيئاً قليلاً من الحماية فقط عندما تكون الرياح أقل هبوباً وغضباً، وفقط من مياه الأمطار النقية.. كنت أنتظر الباص الذي سيقلني إلى الجامعة في أحد الأيام المطيرة وقد احتميت بمظلتي إذ جاءني فجأةً دفق ماءٍ شديد البرودة من الأسفل حيث مرت سيارة سخيفة اقتربت أكثر من اللازم، ولم ترشني بماء تلك البقعة الهائلة، بل سكبته على سكباً بللني تحت سمع المظلة وبصرها من قمة رأسي حتى حذائي وجعلتني أعود أدراجي لأستحم ثانيةً وأستبدل حتى الحقيبة.

غير أنّي عندما وجدت أن جميع أحجام المظلات النسائية اللطيفة التي أشتريها خذلتني قررت بعد ترددٍ كبيرٍ أن أشتري مظلةً "يونيسيكس" حجمها ما بين حجم المظلات النسائية القليلة الجدوى والرجالية التي تبدو وكأنها مظلة محلٍ تجاري! تغاضيت فاشتريت تلك المظلة السوداء القبيحة الحجم فقط لتحميني بحجمها القبيح حماية حقيقية من المطر البارد الذي لا يأتي إلا بانهمارٍ شديدٍ يجعل الإنسان يبدو إذا تعرض له وكأنه قد دُفع به إلى بركة ماءٍ غمرته حتى قمة رأسه. وكان هذا المنظر مضحكاً دائماً. اشتريتها وأنا لا أعلم أنها هي التي ستخونني الخيانة العظمى...

هل شعرت يوماً أنك في قاربٍ خفيفٍ له شراعٌ يوجّهه رغم أنفك كيفما شاء في يومٍ عاصفٍ ليدفع به أمام بارجة؟ لقد وجدتني يوماً وأنا أناضل لأسحب المظلة القبيحة الحجم وقد دفع بها الهواء أمامي وأنا أحاول جاهدةً أن أسحبها لأعود بها أو أن أغلقها دونما جدوى بعد أن دفعت بي إلى أن أوصلتني إلى حافة الشارع المليء بالسيارات المسرعة.. هكذا موسم الرياح في اسكتلندا، لقد رأيتها يوماً تدفع بثلاثة أشخاص أحدهم رجلٌ طويل القامة مربوع بما يدهشك كيف استطاعت الريح أن تدفع به مع المرأة والطفل فتضرب بهم صندوق قمامةٍ كبيرٍ على الرصيف. وتعلمت ألا أبتعد عن الجدران كثيراً أثناء المشي في موسم العواصف.. ولكن هاهي الرياح في أوجها تدخل معي حرباً قذرة، فهي لم تكتفي بدفعي بل استخدمت مظلتي لتصنع منها ما يشبه المنطاد الذي يندفع أفقياً باتجاه الشارع..

فقدت السيطرة تماماً على تلك المظلة المتوحشة التي نسِيت واجبها المقدس فتركت المطر يبلّل شعري وأخذت تحاول الهرب من قبضتي لتندفع رأساً إلى الشارع الذي يعج بالسيارات، وللمرة الأولى شعرت ببأس هذا الشيء الذي اسمه هواء عندما يجمع قواه ليدفع به في تجويف المظلة فيصنع منها شراعاً خارج السيطرة استطاع أن يجرّني خلفه بلا حيلةٍ إلى أن وجدت نفسي على حافة الشارع، أناضل فقط لأبقى حيث أنا في مأمنٍ من السيارات التي لا تتوقف، في ظرفٍ من أغرب وأقسى ما مر بي من الظروف؛ فإن تمسّكت بها أكثر من ذلك فستدفع بي حتماً إلى الشارع أمام السيارات المسرعة، وإن أفلتّها لأنقذ نفسي فحتما ستربك المرور بحجمها الغبي وقد تتسبب في حادثٍ يشمل أكثر من سيارة..

لا أعرف كيف سيطرت عليها في النهاية، وكيف ألهمني الله أن أستدير بها بصعوبةٍ بالغةٍ ثم أجعل شراعها الأحمق في الأسفل، ثم التقطت لحظةً نادرةً خفّت فيها وطأة الرياح قليلاً فأغلقتها سريعاً، ومشيت تحت المطر بلا مظلة والحمقاء وقد أُغلقت وأُلجمت

حافتها معلقةٌ كجعبة السهام على ظهري.

أما المظلة الأخيرة فهي التي حاولت جهدي أن أتخلص منها قبل أن أعود إلى وطني الصغير الدافئ الذي لم يحوجني لمظلةٍ قط. وكلما تظاهرت بنسيانها في مكانٍ قدمها إليَّ أحدهم وتوقع شكراً على أمانته. لم أتركها في السكن مع ما تركت من أشياء كما قد نويت، لأن يومي الأخير هناك كان مطيراً فارتأيت أن أستخدمها الاستخدام الأخير قبل أن أتخلص منها، ولكن المشكلة أنه لا يمكنك عندما تستغني عن شيءٍ شبه جديدٍ أن تضعه في قمامة المطار من غير أن يلاحقك الناس بنظراتهم المستغربة المُتّهِمة، لذلك فقد قررت أن "أنساها" في سيارة الأجرة، إلا أن السائق التقطها وقدمها إليّ قبل أي شيء آخر من أمتعتي. فقررت أن "أفقدها" في الطائرة، فدسست برأسها في جيب حقيبةٍ لا يتَّسع إلا لنصفها.

ولكن، كما كان متوقعاً، أخرجها موظف المطار المختصّ بتسجيل الأمتعة لإرسالها إلى الطائرة وقدمها إليَّ بابتسامةٍ كبيرةٍ على وجهه كمن قد أسدى معروفاً وهو يقول لي:"من الأفضل أن تمسكي بها لأنها حتماً ستضيع منك في الطائرة إذا تركتها هكذا."

فرصتي الذهبية كانت في آخر ممر قبل دخول الطائرة. وصلت إليه متأخرة كالعادة فارغاً تماماً من البشر بعد أن دخل الجميع إلى الطائرة. قدَّرت أنه قد تكون هناك كاميرا ستسجل ما يحدث، ولكن لا بأس، سيكون الأمر قد انتهى عندما يشاهده الآخرون. أسندت آخر مظلاتي إلى جانب أحد المقاعد هناك وأسرعت إلى الطائرة..

عندما جاء صوت الطيار يعلن استكمالَ استعدادات الطائرة للإقلاع تنفّست الصعداء وأخذت أتملّى مما بقي من لندن أمام عينيّ ومن مطرها الذي لم يبق منه إلا قطرات صغيرة تتساقط بخفةٍ على جناح الطائرة.